المثقف العربي بين الصمود والسقوط

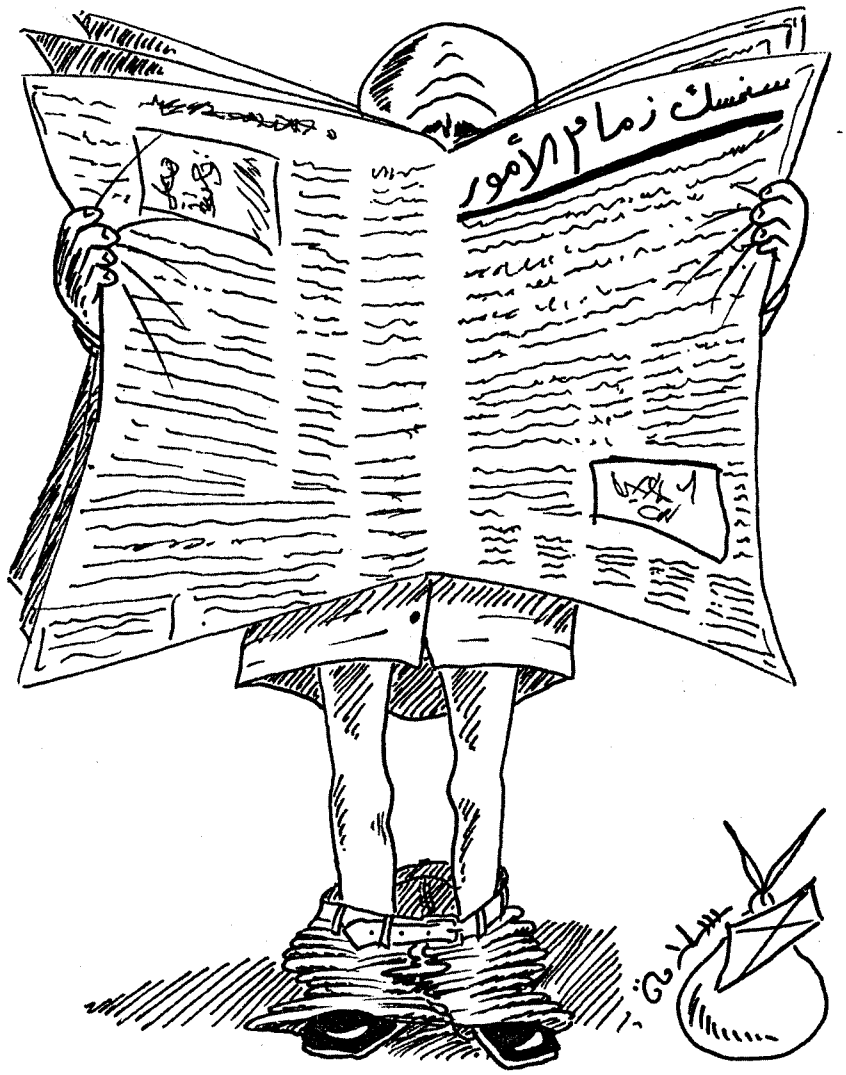

أنيس صايغ

كان المثقفون طليعة الساعين إلى غدٍ أفضل لشعوبهم: تحرير البلاد والحفاظ على الاستقلال الوطنيّ، أو بناء الدولة وتنظيم أمور المجتمع، أو ترقية الأحوال العامّة ورفع مستويات الأداء وتنشيط العلاقات الاجتماعية وتعبئة شرائح الأمّة ورصّ صفوفها. كانوا كذلك دوماً، ومنذ العهود الغابرة، حتى حين لم يكونوا قد تكتّلوا في طبقةٍ وكانوا مجرد أفراد متفرقين. وهذا ما تدلّ عليه وثائقُ أولى الممالك في الشرق، الأشورية والكلدانية والكنعانية والفرعونية ومن بعدها الفارسية والإغريقيّة والرومانية. وتدين النهضةُ القوميةُ العربيّة الحديثة، في المئة والخمسين سنة الأخيرة، للمثقفين بوضع أسس اليقظة العربية التي أسهمتْ في تحرير البلاد وتحقيق الاستقلال الوطنيّ في معظم الأرض العربية. وحسبنا أن نَذْكر، على سبيل المثال لا الحصر، جهودَ «الجمعيات الأدبيّة» في بيروت ودمشق في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ومؤتمرات الطلبة المصريين في أوروبا في أوائل القرن الحالي، ومؤتمر الخريجين الدائم في السودان أواسطَ القرن، وكذلك النوادي الثقافية في دمشق وبيروت وبغداد والخرطوم التي كانت رائدةً للعطاء الثقافيّ الملتزم بالقضية القومية والوطنية.

إننا نخشى، ونحن نمرّ في أوقات الانهيار الوطنيّ/القوميّ العصيبة على مستوى الوطن العربيّ كله وعلى مستويات الأقطار والكيانات المحليّة، أن يَلحق الانهيارُ بجماعة المثقفين مثلما أصاب الجماعاتِ الفاعلةَ الأخرى، وخاصةً السياسية منها. وبدلاً من أن يكون المثقّفُ سدّاً في وجه هجمة الاستسلام، نخشى أن يكون من أولى ضحايا هذه الهجمة. والمصيبة في تفكك طبقة المثقفين وتخلّي أفرادها عن دورهم الرياديّ أخطرُ بكثيرٍ من هزيمة طبقة السياسيين. فبقدر ما يكون الدورُ المرتجى من المثقف كبيراً، يكون تخلُّفُه عن أداء هذا الدور كارثةً عظيمة.

نقول هذا الكلام ونحن نراقب، بأسفٍ وألمٍ، العديدَ من عناصرنا الوطنيةِ، من أفرادٍ وقياداتٍ ومنظماتٍ وحركاتٍ، ممن أبْلوا

في عقودٍ ماضية في بناءِ الاستقلال وترسيخ دعائمه وفي نشر الوعي القوميّ، وقد تخلّوا عن أسلحة النضال، فارتدّوا، وتنازلوا عن الثوابت التي طالما دَعَوْا إليها، وتراخت عزائمُهم ووهنتْ مواقفهم وتخلّوا عن مواقعهم، بل إنّ بعضهم تمادى في التنكّر لماضيه، وانتقل إلى المواقع المضادّة والمتناقضة، وأخذ يدافع عن سياساتٍ وإجراءاتٍ وأهدافٍ بالقوّة والاندفاع نفسهما اللذيْن كان يهاجمها بهما. وأصبح الواحدُ من هؤلاء نقيضَ نفسه. بل إنّ بعضهم لم يُتعِبْ نفسَه بتبرير سلوكه وشرحِ هذا التناقض أمام الجماهير.

وبدل أن تقف غالبيةُ مثقفينا أمام هذه الرِّدّة بالمرصاد، فتكشفَ عن أخطارها وتحدَّ من آثارها وتمنعَ استفحالها، نلاحظ ـ بأسفٍ وألمٍ أيضاً ـ ضعفَ ردِّ فعلِ هؤلاء، وخفوتَ أصواتهم المحتجّة والمحذِّرة، وكأنّ الوهنَ لحق بالمثقفين مثلما لحق بالآخرين في الحقل الوطنيّ.

هناك ظروفٌ كثيرة تعاونتْ في إدخال أُمتنا العربية نفقَ الزمن الرديء الذي نتخبّط في عتمته منذ سنين. وهي ظروفٌ دولية ومحليّة، سياسية وعسكرية ونفسية وثقافية، وقد لحق الخللُ الناجم عنها بالقيادات كما بالجماهير، وبالأفراد كما بالمؤسسات. ومَنْ يتبصّر في قسوة هذه الظروف وشراسة أسيادها وفظاعة أسلحتها لا يستغرب أن تنجح في تكوين عقبةٍ أمام التقدم والنهوض العربيّيْن وفي الحؤول دون تحقيق الكثير من أحلامنا وآمالنا. لكنّ هذه المؤثِّرات ما كانت لتقتل روحَ الانبعاث في الأمة لو تصدّى المثقفون الملتزمون لها مثلما سبق أن تصدّوا من قبلُ لأعداء الأمة المتمثِّلين بقوى الاستعمار والاحتلال والتخلّف والظلم والاستبداد. والسؤال المطروح بإلحاح هو: ما هي العوامل التي استطاعت لا أن تحيّد المثقفّين وتجمِّدَ قدراتِهم في وجه المؤامرات، بل تمكّنتْ من تحويلهم إلى أدواتٍ تنحاز إلى قوى الشرّ وتعمل في خدمتها؟ كيف تحوّل القلمُ المناضل من أجل الحرية إلى رصاصة تغتال الحرية؟

إنه سؤال يمهّد الردُّ عليه الطريق أمام خطّةِ عملٍ مطلوب وضعُها بسرعةٍ وبجدٍّ وبوعيٍ لتجنيد ثقافتنا ومثقفينا، من جديد، في عملية التصدّي وفي إلحاقهم بمسيرة النضال الوطنيّ والقوميّ، التي نرفض أنّ تتوقف ونحرص على استمرارها وتصاعدِها بالرغم من الظروف القاسية التي تعترض سبيلها وتسلبها زخمَها وحيويّتها.

حبّذا لو تخصّص الآداب ـ وهي منذ إنشائها داعيةُ الثقافة الوطنية ـ جزءاً كبيراً من اهتماماتها وصفحاتها لهذا الموضوع بالذات: لدرس عواملِ سقوطِ مثقفين عرب كثيرين في الحركة، والدوافع الذاتية والموضوعية أيضاً، الخاصّةِ والعامّةِ، التي أدّتْ إلى سقوط العشرات من رفاق درب النضال سابقاً وهرولتهم إلى الطرف المعادي. هل هو خطأ في ثقافتنا العربية، في تربيتنا ومناهج التعليم عندنا؟ أم هو نتيجة لواقعٍ اقتصاديٍّ صعبٍ يمرّ به مثقفونا؟ أم هو حصيلة تقدّمٍ علميٍّ وتكنولوجيٍّ في الأدوات التي يستعملها أعداؤنا في تمزيق صفوفنا وتفسيخ مجتمعاتنا وشلّ إرادة العناصر الواعية عندنا؟ أم هو وهنٌ ذاتيّ في طبيعة بني البشر، وخللٌ في الطينة التي جُبلتْ بها شخصياتُهم وقوالبُ تفكيرهم؟ أم هو ردُّ فعلٍ لأحوال القمع والسلب والظلم التي يخضع لها الشعبُ ـ والمثقفون بنوع خاص ـ في غالبية الأقطار العربية؟ أم هو التسابق الأعمى نحو الشهرة والمال والمغانم والمكاسب ومتع العيش الرغيد، ذلك التسابق الذي أطلقه المجتمعُ الاستهلاكيُّ في الشرائح المختلفة؟ أم هو مجموع هذه العوامل وغيرها، التي تضافرتْ عن سابق قصدٍ وتصميمٍ في عملية إخراج المثقف من موقعه الطبيعيّ، بوعي أو دون وعي ومباشرةً أو غيرَ مباشرة، وإلحاقِهِ بالمعسكر الآخر المعاديّ لكلّ ما كان يحمله من قيمٍ ويرفعه من مبادئ؟

انعقد منذ أشهر قليلة مؤتمرٌ «ثقافيّ» في إحدى المدن الأوروبية لدراسة الأحوال (الأسباب والنتائج) التي تسهّل على الغرب (خاصةً دعاة التطبيع مع العدوّ الصيوني) «هدايةَ» المثقفين العرب «وإرشادهم» إلى فضائل التعامل مع الغرب على صعيد تطبيع العلاقات الثقافية. وقد اشترك في الندوة عددٌ من أساتذتنا وكتّابنا وعلمائنا ممّن انخرطوا في فلك التطبيع. وتبادلوا الرأي والخبرة والتجربة مع نظراء لهم من المفكرين الأوروبيين والأميركيين والإسرائيليين. ويبقى علينا نحن (وهي دعوة موجّهة إلى الآداب قبلَ غيرها) أن نبادر إلى معالجة الموضوع ذاته من الجانب الآخر، وهو الجانب الأساسيّ، عن طريق الندوات والحلقات الدراسية والبحوث، لنعرف فعلاً جوهرَ الأسباب والأساليب التي تجعلنا نخسر في صباحِ كلِّ يومٍ جديدٍ أحدَ رفاقنا من الكتّاب أو المثقفين المناضلين سابقاً.

إنّ سقوط المثقف العربيّ هو اليوم، في رأيي، أخطر ما نواجه من مؤامرات. إنه المفتاح الذي يشرِع الأبوابَ أمام سقوط الأمة.

عمّان